آراء

إيران التراجيدية وإيران الكوميدية: الجرَّة والسحليَّة

أحمد عمر

وصف كثيرون من المتابعين العرب عمليةَ «الوعد الصادق»، التي قامت بها إيران في إبريل/ نيسان الفائت، بالمسرحيّة، لأنّها لم تؤذِ إسرائيل، وكانت ردّاً على قصف القنصلية الإيرانية بدمشق، التي قضى فيها القائد محمّد رضا زاهدي وسبعةٌ آخرون من إيران، وستّةُ مدنيين من سورية، وكان ردُّ إيران معروفَ الموعد، «رانديفو»، حسب مبغضي إيران، وهي استعمار كما لا يُخفَى، وفي الحرب يفضّلُ الخبراء ضرب المباغتة لا ضرب المواعيد. وُصِفت «الوعد الصادق» من مُحلّلين آخرين بأنّها استعراضٌ للقوّة وتلويحُ بردٍّ لا يُبقي ولا يذر، وقد استفادت إسرائيل من المسرحيّة باستدرار العطف الدولي والأميركي، والتزوّد بالسلاح والذخائر، وقد ضخَّم إعلامُها الردَّ. السؤال، ونحن نتحدَّث عن المسرحيّة، ماذا عن التمثيل الإيراني، هل يجيد الإيرانيون التمثيل السينمائي والتلفزيوني والمسرحي والسياسي؟

وهناك عرض إيراني عسكري حديث جرى قبل أربع سنوات، يستعرض فيه مقاتلون إيرانيون قوّتهم وفتوّتهم وبأسَهم، فيعجز «جاكي شانهم» عن كسر جرَّة فُخّارية، ويحاول مراتٍ عدّةٍ تحطيمها بضربة «كاراتيه»، فيُخفِقُ ويسقط على الأرض وقد هزمته الجرَّة وجندلته، فيثير الضحك بدلاً من إثارة الإعجاب والزهو والبطش والاقتدار، فليحمدِ الله أنّ رِجلَه لم تعلقْ في أذن الجرَّة كما عَلِق رأس الثور الشهير في جرَّة الحكاية.

حظيت السينما الإيرانية بسمعةٍ حسنةٍ، ونالت أفلامُها جوائزَ عالميةً، وهي أفلامٌ واقعيّةٌ صوفيّةٌ ورومانسيةٌ رقيقةٌ تشبه القصيدةَ في رقّتها، تنتهي في معظمها بلوعةٍ تشبه العطشَ الذي يقال إنّ الحُسين عانى منه عندما مُنِع من شرب ماء الفرات، فهي أفلامٌ تدفع إلى النوح والحسرة. إنّ ميراث إيران من التفجُّع على الحُسينِ وكربلاءَ (وملكِ كسرى) عريق، وقد انعكس في أفلامها، وقصصها، وأغانيها، وابتهالاتها، ووجدان أهل فارس عموماً، حتّى قرَّ فيها قراراً.

يُلاحظ من متابعة أفضل أفلام السينما الإيرانية أنَّ مُخرِجيها ومُؤلِّفي قصص أفلامها بارعون في التفجُّع وصناعة الحزن واللوعة والحسرة، حتّى أنّ القصص العالمية، مثل قصَّةِ «موت بائع متجوّلٍ» لآرثر ميلر تتحوَّل اقتباساً في الصناعة الوجدانية الإيرانية مشهديةً حسينيةً. وقد وجدتُ من مشاهدةِ أفلامٍ إيرانيةٍ عدّةٍ أنّ صنَّاع أفلامها يحرصون على تلويع عاطفة المشاهدين بالأطفال، فمعظم أبطال أفلامها الشهيرة حائزة على جوائز أطفال، أو هم من أولي الضرر. يقول شارلي شابلن: «إنّ فيلماً بطله طفل وكلب ناجحٌ حتماً». وهي أفلام تذهب بالموجدة إلى أقصاها. في كلّ فلم طيف من الحُسين الشهيد، أحياناً يأتي الحُسين على حصان لإنقاذ ميّت أو مُشرفٍ على الموت، وتسمع أصواتَ سنابك حصانه وهو يعبر السحاب لنجدة المؤمنين بقدراته الإعجازية. لنقل إنّ سينما إيران هي سينما اللطم بسياط العاطفة.

وقد فوجئ كاتب هذه السطور بأنّ إيران قد أنتجت أفلاماً كوميدية، فهم قوم يضحكون مثل بقيّة الأقوام، وكان يظنُّهم أهلَ ندبٍ وبكاءٍ حتماً مقضياً. خذ فيلم «السحلية» الكوميدي، وهو فيلمٌ مُقتبَسٌ من فيلمٍ عالمي اسمه «مدافع سان سيباستيان»، أو من فيلم «نحن لسنا ملائكة» الأميركي، وفي قصَّته، الإيرانية الاقتباس، يضطر هاربٌ من السجن إلى التخفّي بشخصية إمام مسجد، فيقوم بأفعال مُضحِكة، وللفيلم نسخةٌ عربيةٌ اسمها «الحدق يفهم»، يمثّل فيها كلٌّ من محمود عبد العزيز وهالة فؤاد. إنّ السينما الإيرانية عمودها اللوعة وسنامها البكاء، أمّا أفلامها السياسية في نشرات الأخبار، فهي أفلام كوميدية.

إنّ أفلامَ إيران الروائيةَ رائعةٌ مبكيةٌ مُنيِّحة، أما مسرحياتها العسكرية والسياسية فتنتهي بتحويل المأساةِ ملهاةً مضحكةً.

روائح المدينة وروائح الغيطان

عبد الحكيم حيدر

كأن تمرَّ على قريةٍ صغيرةٍ جدّاً من بيوتٍ صغيرةٍ فوقَ سنِّ جبلٍ من دون أن تنتبه أبداً لروائح الياسمين في تعريشات شجرها، وكأن تمرَّ على قريةٍ من بيوتاتٍ قليلةٍ على جرفِ ترعةٍ صغيرةٍ والأغنام مُسترخِيةً في الظهيرة أسفل ظلالِ أشجار السنط، فيأخذك الفرح بالشوف من دون أن تنتبه لروائح الغنم، لأنّك أيضاً في سعادةٍ شاعريةِ المنظرِ ومسافرٌ، أمّا ما لا تنساه الأرواح المُتعَبةُ، فيظلّ محفوراً في ذاكرة تستظلُّ بأشجارِ تعبها من غير نسيان.

أقصد بالمدينة تحديداً مدننا، التي نعرفها بعلاماتها الحادّة والجارحة وروائح الأسفلت، وهل للأسفلت رائحةٌ سوى ذلك الصهد المكتوم أمام المحالّ الغريبة، التي تتغيّر كلّ يوم من دون متعةٍ سوى الجري وراء الكسب والرزق، وهل بقيت أيضاً هناك روائحُ تلك الحقول التي حامت حولها قلوبُنا، حقولُنا، تلك التي مازالت بقاياها، بعد ما جرى عليها الخراب أيضاً، في ذاكرتي، وخاصّة روائح حافَّات الترع وحولها نباتات الحلفاء أو الهيش أو نباتات الغاب المُهمَلة، أو روائح البساتين المُعتنَى بها من أصحابها المستورين، ويطلُّ من خلف أسوارها الطينية الوردُ أو سبائطُ البلح الملوَّنةِ وأبراجُ الحمامِ، أمّا تلك الحدائق التي كنّا نشمُّ من حولها روائحَ أشجار السنط كثيرة الأشواك، فغالباً كان أصحابها في خوف على أعناب البستان من هؤلاء اللصوص الصغار، وخاصّةً ونحن نستمع لأصوات أولاد الخفراء داخلها وهم يهشّون العصافير عن عناقيد العنب بالضرب بالعصي على الصفائح، ونحن هناك نضحك ونشمُّ روائح أشجار السنط، ونكشط الصمغ عن الشجر للكراريس.

كانت الشباكُ المصنوعة من الجريد والخيوط نائمةً لليمام في خفاءٍ ما بين غيطَي عبَّاد الشمس والعنب، هي شباكٌ لصيد اليمام بواسطة الفقراء والعاطلين من العمل، والعصافيرُ قبل المغارب يستطيب لها مذاقُ العنب، حتّى وإن أغرت أقراص عبّاد الشمس، بألوانها الصفراء، عيون العصافير، حتّى يكتمل المشهد بعد شبَعِها من الأعناب حينما تغطس الشمس في المغارب هناك، مع عودة الفلّاحين بالبهائم إلى البيوت، والأغنام تُحدث جلبتَها في الطريق بغبارها وروائحها، مع عودة الفقراء من صيادي اليمام بالشباك مع عددٍ من أزواج اليمام حُبِسَ في قفصٍ من جريدٍ تمهيداً للبيع، ولا ينسى الواحد أبداً نظرات اليمام في القفص.

تُغريني الروائح، رائحةُ عيدان الشامي، وخاصّةً إذا كان في جانب «الخطّ» الآخر أو «الريشة» في الغيط عيدان ثوم نابتة وقد كبرت في الوقت نفسه، كاستغلال من الفلاح للخطّ الواحد لجني محصولَين، فيكون الأنف مع روائح الثوم النابت، ومع روائح عيدان الشامي معاً، بحريرها، ومع روائح الطين ما بين الخطوط، حينما يسري الماء هيّناً ملاطفاً منابت عيدان الشامي وعيدان الثوم معاً، أمّا أشجار الجوّافة فلها رائحةٌ فضّاحةٌ تجذب اللصوص وغير اللصوص من العيال الأشقياء، أمّا روائح القطن بعد الفجر بساعة في آخر الصيف، ومع لسعات الندى، فأمرٌ له ذكرى السعادة والشقاء وقد امتزجا في كيان العمل، مع سعادة القطن والفرح باللوز قبل بدء الدراسة بأسبوع أو اثنَين، مع رائحة القماش الدمّور على الأبدان العرقانة، مع روائح الطاطورة وعنب الديب، وآه لو جاء الغناء من هناك! من فم فقير معذّب بالهجر الخيالي، وردَّ عليه الهواء بنسمةٍ في منتصف النهار، أو آخره، حينما يأتي القبّاني بميزان القطن الطويل، حينئذ تكون غمزات البنات الحلوة، وكركرات حناجرهن، التي تشبه النداء المحبوس والعطر، وإن لم يكن في الأصوات عطراً. حينئذ، يطيب الغرام للنسيم، ويُعيد الكرّة على عيدان الغيطان، ويبتسم القبّاني وهو مع الميزان والأرقام التي يُسجّلها في دفتره، ثمّ يركنه في جيب الصديري، ويمشي بميزانه وسط الحطب فوق حماره، وتبدأ روائح الشاي المغلي فوق الحطب في البرّاد، وتشمّ روائح الدخان التي يغلبها السرور، وكركرات البنات فرحاً بما أهداه صاحب الغيط من قطن في آخر اليوم، فأين ذلك كلّه ممّا تراه حينما تمشي وحيداً في مدينة لا ترى فيها مدينة؟

الانتخابات الرئاسية التونسية ومستقبل العملية السياسية

جمال طاهر

مثلما توقّع فاعلون ومراقبون مُهتمّون بالشأن التونسي عديدون، حفّت بمسار الانتخابات الرئاسية المزمع تنظيمها في السادس من أكتوبر/ تشرين الأول المقبل إشكاليات عديدة يراها معارضو الرئيس قيس سعيّد تعطيلاتٍ وحواجزَ لتكييف المسار الانتخابي بشكل يُقصي المترشّحين الجدّيين، ويفسح المجال للرئيس المنتهية ولايته ليسابق ظلّه، وليفوز من الدور الأول بما يشبه البيعة العامَّة. غير أنّه رافقت بداية المسار الانتخابي ولادةُ ديناميكيةٍ شعبيةٍ وسياسيةٍ مُهمّة، ربّما فاجأت سلطة الأمر الواقع.

شعبياً، نجحت حملات جمع التزكيات المطلوبة (عشرة آلاف تزكية)، التي تطوّع لها آلافُ التونسيين في حماية وتثبيت حقّ الترشّح لكلّ مواطن، بينما اتّجهت إرادة السلطة عبر حزمةٍ من التشريعات إلى وضع الحواجزَ والعراقيلِ لمنع تحقيق هذا الشرط الأساسي في ملَفّ الترشّح. يمكن اعتبار هذا المُنجز ضمن الظروف العامة التي تعيشها تونس منذ 25 يوليو/ تموز (2021) نجاحاً واختراقاً مُهمَّين في جدار اليأس، وكسراً لطوق الخوف الذي حاولت السلطة إحكامه بالمتابعات القضائية والمحاكمات، لدفع التونسيين إلى الانسحاب من الفضاء العام.

أمّا سياسياً، فقد خاض عديد من المُترشّحين المُحتمَلين معاركَ إعلاميةٍ ضدّ الحواجز والموانع غير القانونية، من وجهة نظرهم، التي وضعتها أمامهم هيئةُ الانتخابات المعيَّنةُ من قيس سعيّد، مثل اشتراط الحصول على بطاقة السجلّ العدلي، وثبوت الجنسية التونسية لوالد المُترشّح وجدّه، وغيرها من الوثائق التي تحتكر الإدارة منحها للمواطن وتتصرَّف في آجال ذلك وترتيباته. ساهمت هذه المُعارضة السياسية لأداءات هيئة الانتخابات ووزارتي الداخلية والعدل في ما يسمّيه المُعارضون تعريةَ تدخّل السلطة التنفيذية وتوظيفها المفضوح لأدوات الدولة والإدارة لفائدة مُرشَّح ضدّ بقية المُترشّحين.

أعلنت هيئة الانتخابات في العاشر من أغسطس/ آب الجاري نتيجة الفحص الأولي لمطالب المُترشّحين للانتخابات الرئاسية بالقبول المبدئي لثلاث ملفّاتٍ؛ لكل من قيس سعيّد (الرئيس المنتهية ولايته)، وأمين عام حركة الشعب الموالية للرئيس زهير المغزاوي، ورئيس حركة عازمون عياشي زمال، فيما أسقطت بقيّة الملفّات بسبب نقص عدد التزكيات المطلوبة أو تجاوز الآجال أو إشكال في الجنسية. بناء عليه، أعلن مُترشّحون انسحابهم من السباق، وأبرزهم الصافي سعيد ونزار الشعري، فيما أعلن آخرون اعتزامهم الطعن في قرارات هيئة الانتخابات لدى المحكمة الإدارية. يترقّب المتابعون قرار هذه المحكمة لأهميته في تحديد بقية خطوات المسار الانتخابي، الذي لم يخرج عن أحد المشهدين التاليين: قبول المحكمة الطعون ونقض قرارات هيئة الانتخابات، ورفض الطعون وتثبيت قرارات هيئة الانتخابات.

المشهد الأول: قبول هيئة الانتخابات بقرار المحكمة الإدارية، وبالتالي إعادة النظر في الملفّات المرفوضة، وقد يفتح هذا على اعتماد ترشّحات جديدة، وربّما تعديل الرزنامة. سيكون هذا الاحتمال تطوّراً مهمّاً من شأنه إضفاء قدر من التنافسية على هذه الانتخابات، وهو ما لم تكن ترضاه السلطة التي بنت استراتيجيتها الانتخابية على إخلاء الساحة من المنافسين الجدّيين، بما يعفي قيس سعيّد من حرج المنافسة الانتخابية، ويفسح أمامه المجال واسعاً لنيل بيعةٍ عامّةٍ ولو بعددٍ محدودٍ من المُصوِّتين «الوطنيين». أمّا المشهد الثاني فهو رفض هيئة الانتخابات قرار المحكمة الإدارية تحت ضغط السلطة، التي سبق لها أن رمت عُرْضَ الحائط بقرار المحكمة الإدارية القاضي بإعادة القضاة المعزولين (57 قاضياً عزلهم قيس سعيّد). قد يُؤدِّي هذا الاحتمال إلى تصاعد المُعارضة السياسية، التي قد تأخذ أحد مسارَين، مسار الدعوة إلى المقاطعة الشعبية للاقتراع بما يحدُّ من نسب المشاركة أو الدعوة إلى المشاركة الشعبية الواسعة للاقتراع والتصويت ضدّ قيس سعيّد. ونتيجة الاحتمالين كليهما، ضربُ مصداقية الانتخابات وتمثيليتها. لا أحدَ يُنكر ما أحدثه قرار

> أبان تعدّد المُترشّحين في الانتخابات الرئاسية التونسية من العائلة الديمقراطية تمحور سياسيين عديدين حول ذواتهم

بعض الشخصيات التونسية الترشّح للمنافسة في هذا الاستحقاق الانتخابي الهام في مستقبل البلاد من ديناميكية حرّكت، رغم محدوديتها، المياهَ الراكدةَ وكسرت حاجز الخوف، وأبطلت الادّعاء بأنّ الشارع الشعبي مساندٌ للرئيس سعيّد. مع ذلك، يثور السؤال: هل تُنهي الانتخابات الرئاسية العملية السياسية أم ستعطيها نَفَساً جديداً؟

واضح أنّ إرادة قيس سعيّد في صورة إعادة انتخابه لعهدة رئاسية ثانية تتّجه إلى مواصلة سعيه في القضاء على الحياة الحزبية، والاستئثار بالفعل السياسي والتحكّم فيه، وإخلاء الساحة من كلّ نَفَس معارض حزبي وغير حزبي، وتصفية إرث الأجسام الوسيطة من أحزاب وجمعيات. وعليه، ستكون هذه الانتخابات من منظور السلطة السهمَ الأخيرَ في جسم الحياة السياسية المُنهك أصلاً، وإسقاط الحجر الأخير من صرح البناء الديمقراطي الذي جاءت به ثورة الحرية والكرامة (2011)، ليتم بذلك وضع اليد على الدولة وإمكاناتها، وغلق المنافذ أمام التغيير، وبالتالي ستكون نهاية هذه الانتخابات إعلانَ نهايةِ السياسةِ أو موتِها في تونس.

الحديث عن احتمال تغيير سعيّد بعد الانتخابات مقاربته في التعامل مع الشأن السياسي في اتجاه قدر من الانفتاح يسمح ببناء عملية سياسية تشاركية، يراه كثيرون ضرباً من الخيال لأسبابٍ عديدةٍ، يتعلّق بعضها بشخصية سعيّد المُنغلقة، وبعضها الآخر برؤيته للسلطة والحكم القائمة على حكم الفرد الجامع للسلطات كلّها، الذي لا مُعقّب لحكمه.

في الجهة المقابلة، وإن عبّرت المعارضة السياسية لحكم قيس سعيّد عن قدر من التعافي، فإنّ ما تحقّق حتى اللحظة ليس كافياً، رغم أهميته، ليمثّل الجبهة المعارضة لحكم سعيّد المجتمعة حول مشروع وطني ديمقراطي مفتوح أمام القوى الديمقراطية كلّها، ينقذ الدولة من التفكيك المنهج، وينقذ الاقتصاد من الانهيار. لقد أبان تعدّد المُترشّحين في هذه الانتخابات من العائلة الديمقراطية عن تمحور سياسيين عديدين حول ذواتهم، وحلمهم بتحقيق مجدٍ شخصي أكثر من المساهمة في بناء عمليةٍ سياسيةٍ مُعارِضة لحكم سعيّد.

ما حققته ديناميكية الانتخابات مُهمٌّ جدّاً، ولكنّه سيبقى مبتوراً إذا لم تتقدّم المُعارَضة خطواتٍ عمليةٍ نحو تجاوز أسباب فشلها في عشرية الحرّية والانتقال الديمقراطي، ومنها أساساً الإقصاء إلى حدّ الاستئصال، وعدم الاعتراف بالمختلف، وغلبة الجزئي على الكلّي، والحزبي على الوطني. سيكون تطوّر المُعارَضة، من التشتت والصراع إلى الاتحاد والتشارك، معياراً مُهمّاً لقياس تعافي السياسة، وشرطاً ضرورياً وأساسياً لبناء عملية سياسية ديمقراطية قادرة على الفعل والتأثير، وتوفير شروط التغيير وتحقيقه.

السياسة هي فضاء لتنازع الإرادات في إطار يضمن تكافؤ الفرص، ويؤدي إلى التداول السلمي على السلطة. عندما تهمين إرادة وتغيب الإرادة المقابلة لها تختلّ العملية السياسية، وربّما تغيب أصلاً، وهو بالضبط الخطر الذي قد تواجهه تونس في صورة تواصل شتات المعارضة واستحكام أسباب وهنها. فهل تكون الانتخابات الرئاسية منطلقاً لنَفَس جديد للعملية السياسية في تونس أم إعلاناً نهائياً لنهايتها؟

(كاتب تونسي في مونتريال)

كاريكاتير **عماد حجاج**

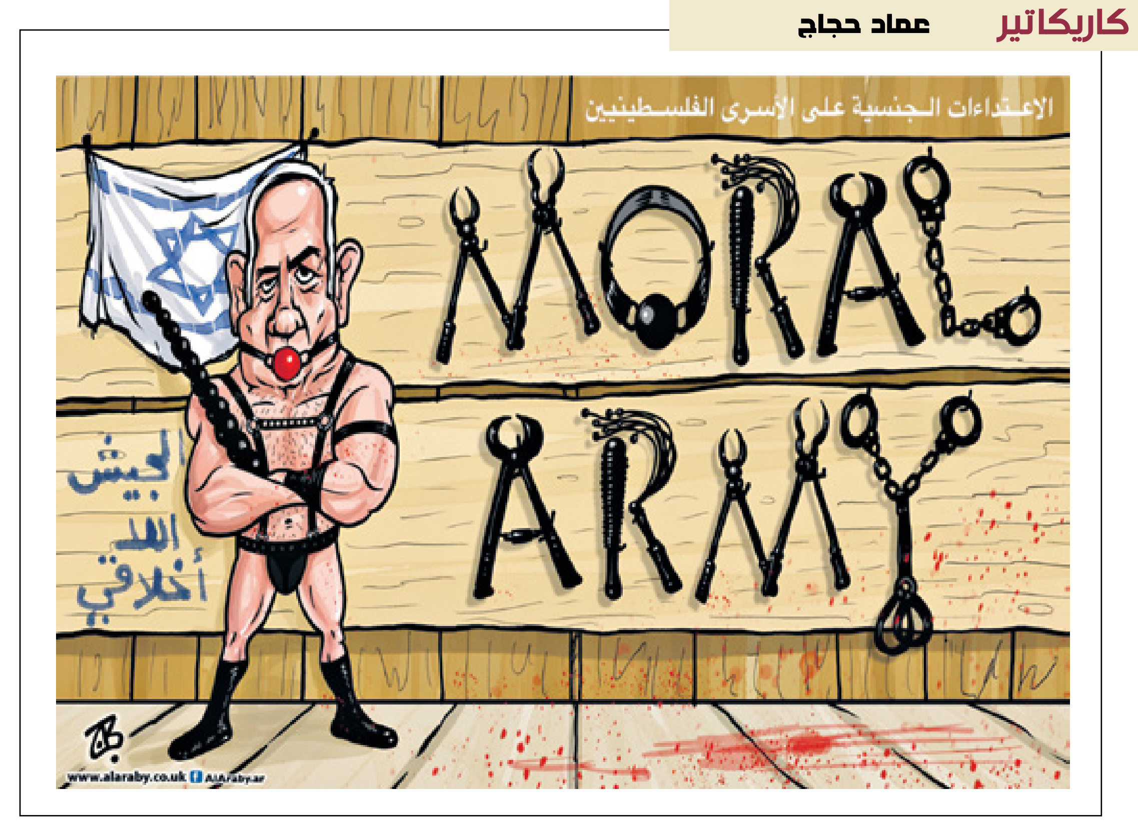

ماكرون وأيام صعبة في الإليزيه

باسل الحاج جاسم

أثارت أعمال التخريب التي ضربت شبكة القطارات الفرنسية، قبل انطلاق الأولمبياد، كثيراً من التساؤلات حول الدوافع وراء ذلك، في ظلّ مشهد سياسي داخلي فرنسي مُعقّد، وسط توتّرات اقتصادية واجتماعية تشهدها البلاد، ولا يمكن فصلها عن تطوّرات خارجية، متعلّقة بالحرب الدائرة في أوكرانيا، والصراع مع روسيا، ودور فرنسا الذي يتآكل في القارة الأفريقية وفي مناطق نفوذ تاريخية. وأيّاً كان الطرف الذي يقف وراءها، ستزيد هذه الأحداث من تعقيدات التوتّر الأمني وحدّته في فرنسا، ممّا قد يدفع السلطات إلى اتّخاذ إجراءات أمنية مُشدَّدة، كما أنّها ضربةٌ للصورة الدولية لفرنسا، وستُؤثّر سلباً في قطاع السياحة، لكونه من أهم ركائز الاقتصاد الفرنسي، خاصّة في فترة الأولمبياد.

ومع عدم تبنّي أيّ جهةٍ لهذه العمليات التخريبية، وغياب أيّ أدلّةٍ حتّى الآن، تدور شبهات حول جماعات داخلية مُتطرّفة، وشبهات خارجية حول دول أو مجموعات وحركات مُتطرّفة عابرة للحدود، وقد يكون مُنفّذ التخريب طرفاً محلّياً يخدم أجندةً خارجية، فهناك اتّهامات لأطراف فرنسية بأنّها طابورٌ خامسٌ يخدم دولاً أخرى.

والواضح أنّ تلك الأعمال نفّذها مُحترفون، مع تخطيط جيّد عند نقاط محددة، لإحداث هذا التأثير الكبير في شللٍ غير مسبوقٍ أصاب حركة القطارات السريعة، في الوقت الذي ركّزت فيه الحكومة الفرنسية إجراءاتها تحسُّباً لهجمات قد تحدث على الطريقة التقليدية، لكنّ العقلَ المُدبّرَ استهدف نقاطاً غير محميَّة، وبالفعل أربكت فرنسا بأكملها، وراحت تحبس أنفاسها وهي على أبواب حدث رياضي كبير.

بعد الانتصار التاريخي لليمين المُتطرّف الفرنسي في الانتخابات الأوروبية، التي أجريت في التاسع من يونيو/ حزيران الماضي، بحصوله على أكثر من 31% من الأصوات، قرّر الرئيس إيمانويل ماكرون الدعوة لانتخابات تشريعية مُبكِّرة، وبعد دورتَين أُجريتا في 30 يونيو و7 يوليو/ تمّوز الماضيين أسفر الاقتراع عن مشهدٍ سياسيٍّ غير مسبوقٍ في فرنسا، فبالرغم من تصدُّره الجولة الأولى، اكتفى التجمُّع الوطني (اليميني المُتطرّف) بالمركز الثالث بـ143 مقعداً خلف تحالف اليسار (الجبهة الشعبية الجديدة)، الذي تصدَّر النتائج بحصوله على 182 مقعداً، والتحالف الرئاسي الذي حلّ ثانياً بـ168 مقعداً، ولم تُسفر الانتخابات عن أيّ أغلبيةٍ في الجمعية الوطنية، وبين التوقّعات بتشكيل ائتلاف حكومي أو اتفاقات حالة بحالة أو اللجوء إلى المادة 49,3، تخيّم حالةٌ من الغموض، حتّى اليوم، حول الشخصية التي ستتولّى رئاسة الوزراء. بعد النتائج التي حقّقها اليمين المُتطرّف خلال انتخابات البرلمان الأوروبي، ما دفع بعضهم إلى وصف ماحدث بالزلزال السياسي، الذي سيغيّر وجه أوروبا، باتت مقولة «اليمين المُتطرّف في تصاعد» تتردّد ليس فقط في فرنسا، بل في عموم أوروبا، في حالة يقال إنّها تشابه ما كانت عليه القارّة في الثلاثينيّات من القرن الماضي، إلّا أنّ نتائج الجولة الثانية في الانتخابات البرلمانية الفرنسية أظهرت فوزاً مفاجئاً وغيرَ مُتوقَّع لليسار، المُتمثّل في تحالف الجبهة الشعبية الجديدة بزعامة جان لوك ميلانشون (اليساري المُتطرّف)، وهزيمة اليمين المُتشدّد، الذي بدا قريباً من الفوز في الجولة الأولى.

وتشير التقديرات إلى رهان ماكرون، عندما قرّر حلّ الجمعية الوطنية، والتوجُّه نحو انتخابات برلمانية مُبكِّرة، إلى أنّ الأحزاب الأخرى مشتّتةٌ ولن تستطيع التوحُّد خلال فترة وجيزة، والتصويت سيكون لصالح التحالف الرئاسي، لأنّه سيكون خوفاً من اليمين المُتطرّف وضدّ صعوده، وإلى أنّه كان مُتأكّداً من أنّ الأطراف المناهضة لليمين المُتطرّف قادرةٌ على مواجهته، أو أنّ ماكرون يريد توريط هذه الأحزاب في

> باتت مقولة «اليمين المُتطرّف في تصاعد» تتردَّد في عموم أوروبا

فخّ المشاركة في الحكم في ظلّ توتّرات اجتماعية اقتصادية سياسية صعبة تمرّ فيها البلاد، لا سيّما مع تقدير صعوبة قدرتها في الحصول على أغلبية برلمانية مطلقة تؤهّلها لتشكيل حكومة بمفردها، ليرأسها زعيمها جيوردانو بارديلا، لتنفيذ برنامجه بأغلبية مُريحة. إلّا أنّ ما حصل أظهر أنّ الخاسر الأكبر هو المعسكر الرئاسي نفسه، بعد نجاح تحالف اليسار، الجبهة الشعبية الجديدة، في رهانَين، تقديم لائحةٍ موحّدة في وقت قياسي، وتقديم برنامجٍ عاجل، وانعكس ذلك في صناديق الاقتراعِ من الجولة الثانية للانتخابات التشريعية، وعرقل استمرار صعود اليمين المُتطرّف، وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أنّه في بداية رئاسة ماكرون كان من شعاراته إضعاف اليمين المُتطرّف، وتقليل الأصوات التي يحصل عليها، ولكن ما حصل هو العكس، واليوم أيّاً كان السيناريو الحكومي القادم، تنتظر ماكرون أيامٌ صعبةٌ في ما تبقّى له من سنوات في قصر الإليزيه. يبقى القول، إنّ مُصطلحات اليمين أو اليسار المُتطرّفين، مُصطلحات مُعقّدةٌ ذات دلالات مختلفة، حسب السياق، وتقييم كلّ جماعة أو حركة سياسية على حدة، يكون بناءً على أيديولوجيتها وسلوكها.

(كاتب عربي في أستانة)

أوّل «الطوفان» سيرة البؤس

جورج كعدي

سيول الشتاء التي تدلف مياهُها من سقف الغرفة لتملأ وعاءً إثر وعاء، أو تتدفّق إلى أرض الدار الصغيرة فتبلّل الفُرُش والحَصائر وتخيف الصغارَ، هي أساس الحكاية، مبتدأ روايةِ يحيى السنوار اليتيمة والفريدة؛ «الشوك والقرنفل» (2004)، وخبرها، منبع الحرمان والعذاب والقهر، ثمّ الغضب والثورة، فالعمل المقاوم ضدّ المحتلّ.

قرأتُ الرواية (شبه السيرة) كاملةً في 335 صفحة، ولم أخرج من أسر مطلعها، الذي هو للسنوار أصلُ ما سيلي: «شتاء عام 1967 كان ثقيلاً يرفض الرحيل ويزاحم الربيع الذي يحاول الإطلال بشمسه المشرقة الدافئة، فيدافعه الشتاء بغيوم تتلبد بالسماء، وإذا بالمطر ينهمر غزيراً من السماء فيُغرق تلك البيوت البسيطة في مخيم الشاطئ للاجئين بمدينة غزة وتجري السيول في أزقة المخيّم فتقتحم البيوت وتزاحم ساكنيها في غرفهم الصغيرة ذات الأرضيّات المنخفضة عن مستوى الشارع القريب. مراراً وتكراراً تدفقت مياه سيول الشتاء إلى ساحة دارنا الصغيرة ثم تدفقت إلى داخل هذه الدار التي تسكنها عائلتنا منذ بدأ الحال يستقرّ بها بعد أن هاجرت من بلدة الفلوجة في الأراضي المحتلة عام 1948، وفي كل مرة يدبّ الفزع بي وبإخواني الثلاثة وأختيّ، وخمستهم كانوا يكبرونني سناً فيهبّ أبي وأمي إلينا ليرفعونا عن الأرض، ولترفع أمي الفراش قبل أن تبلّله المياه التي اقتحمت بيتنا البسيط، ولأنني كنت الأصغر كنت أتعلّق في رقبة أمي إلى جوار أختي الرضيعة التي كانت في العادة على ذراعيها في مثل هذه الحالات. مرّات عديدة استيقظتُ ليلاً على يدي أمي تزيحانني جانباً، وتضع على فراشها إلى جواري تماماً طنجرة الألمنيوم أو صحن الفخار الكبير لتسقط فيه قطرات الماء التي تتسرّب من التشقّق في سقف القرميد الذي يغطي تلك الغرفة الصغيرة، طنجرة هنا وصحن من الفخّار هناك وإناء ثالث في مكان آخر. أحاول في كل مرّة النوم فأفلح أحياناً ثم أستيقظ على صوت قطرات الماء وهي ترتطم بما تجمّع من مياه في ذلك الإناء بصورة منتظمة، وعندما يمتلئ الوعاء أو يشارف على الامتلاء يصبح رذاذ الماء يتراشق عليه في كل قطرة، فتهبّ أمي لتضع وعاءً جديداً مكان الذي امتلأ وتخرج لتسكنه خارج الغرفة».

إذْ أحرص على إيراد هذا المقطع الافتتاحي للرواية كاملاً، فلدلالاتٍ جمّةٍ كامنةٍ فيه. الكاتب الأسير، الذي هرّب فصول «الشوك والقرنفل» من المعتقل الإسرائيلي، كان يُنقّب في ذاكرة طفولته عن تفاصيل بؤسٍ لا تبارح تلك الذاكرة، وكان يُحدّد لنا بالتالي جغرافيا هذه الطفولة (المخيّم)، وواقعَ شقائها وحرمانها (البيت الصغير الذي يدلف سقفه)، والوجوهَ الراسخةَ غير المحوّة (الأمّ والأب والأخوة والأختين)، والزمانَ الذي هو عام النكسة (1967)، وإقدامَ الكيان الصهيوني على احتلال القطاع الذي كان قبل هذا التاريخ تحت إشراف مصر. مع التذكير بأنّ مخيّمات اللاجئين في غزّة تُؤوي العائلات الفلسطينية التي طُردت من قراها ومدنها وأراضيها عام 1948، وبينها عائلة السنوار من منطقة عسقلان. ذاكرةُ بؤسِ الطفولةِ وعيشها المرير أساسٌ يُبنَى عليه في تكوين شخصيَّة طفل أضحى مُقاوماً، فمُعتقلاً في السجون الإسرائيلية سنينَ مديدةً، فمُحرَّراً بصفقةِ تبادلٍ، فقائداً عسكرياً في حركة حماس، فرئيساً لهذه الحركة المُقاومة بعد اغتيال رئيسها الشهيد إسماعيل هنيّة.

أمّا لماذا الرواية المُنقّبة في ذاكرة الطفولة واليناع والشباب، فلأنّ السنوار أدركته لوثة الأدب مذ درَسه في الجامعة الإسلامية في غزّة، ثمّ درَّسه قبل تفرُّغه للعمل المُقاوم وللمسؤوليات التنظيمية. أزجى وقته في السجن بالكتابة، بغيةَ إمرار الوقت الذي يعبر، وقهْر النسيان، وإيجاد معنىً للحياةِ في الأسر. وجدانه المُتألّم كان يكتب مُستعيداً من ذاكرته ومخيَّلته البعيدةِ ذكرياتِ طفولةٍ فقيرةٍ معذَّبةٍ، فعائلته هي كلُّ عائلةٍ غزّيةٍ، خصوصاً في مخيَّمات اللجوء، كمخيَّم الشاطئ، مرتعُ الفقر والقهر. يستعيد تفاصيل الحياة فيه، وألعاب الأطفال، والبيوت التعيسة، والطعام البسيط، وآلام الأمّهات وخوفهن من اعتقال أبنائهن أو سجنهم أو تحطيم عظامهم أو استشهادهم. وبطلُ الروايةِ هو تارةً الطفل الراوي «أحمد الصالح»، وتارةً أخرى «إبراهيم الصالح»، المُقاومُ المُتديّنُ والعصاميُّ، الذي يحمل الهمّ الوطني منذ يفاعه، والذي درس في الجامعة الإسلامية، وعمل خلال دراسته في البناء، وشارك في العمل الفدائي، واعتُقِل مراراً، وهُدِّد، وتزوّج ابنة عمّه... الروايةُ، لا السيرةُ، أعفت السنوار وهو في الاعتقال من كشف أسرار مجتمعه وبيئة المُقاومين. هي في معنىً ما سيرةٌ مموّهةٌ تُضلّل المُحتلّ، ولا تهدي له المعلومةَ الدقيقةَ والأسماءَ الحقيقيةَ، باستثناء تلك الشهيدة، مثل ياسر عرفات وأحمد ياسين. الروايةُ – السيرة مكتوبةٌ بعنوانٍ مُقاوم، وبتقنيّةِ سردٍ تتقاطع فيها الأصواتُ والرؤى والمفاهيم، تتعارض وتتصارع (كالجدل حول عمل الفلسطينيين لدى الصهاينة لكسب بعض المال، وكان السنوار مُعارِضاً شرساً له، وكان مع مقاومين رفاق يُمزّقون أذونات العمل لحامليها). سردٌ سلسٌ، وإن لم يستوفِ شروطَ العمل الروائيّ المُبدع، فهو في الأقلّ سردٌ واقعيٌّ، صادقٌ، حقيقيٌّ، وإن اعتمد التمويه والتورية. تحضر فيه العاطفة، والحُبّ، على نحوٍ من الخَفَر والالتزام الدينيّ، فلا مساحة مُتّسعة للحُبّ «سوى لحُبٍّ واحدٍ ولعشقٍ واحدٍ هو الأرض ومُقدّساتها وترابها وهواؤها وبرتقالها».

تعبرُ روايةُ يحيى السنوار حِقَباً ثلاثاً في دروب الشوك (حياة الشدّة والحياة الفلسطينية الشاقّة والدامية)، ووسط أزهار القرنفل (ذات الطاقة النارية الجميلة التي تُزرَعُ في غزّة وتبعث على الحياة). الأولى، زمنُ نكسة عام 1967 وما رتّبت من تغييرات مأساوية في واقع غزّة، إلى عشيّة اندلاع انتفاضة الحجارة عام 1987، وبدايةِ تشكّل الوعي الوطني والإسلامي في مواجهة كيّ الوعي الإسرائيلي المُمارَس على أهل غزّة، وإفسادهم بالمال، وتجنيد العملاء. الثانية، الانتفاضة الأولى، ثمّ اتّفاق أوسلو (1993)، وإنشاء السلطة الفلسطينية عام 1994، وسيطرتها على القطاع، وصراع الإخوة («فتح» و«حماس»). الثالثة، اندلاع الانتفاضة الثانية (الأقصى) عام 2000. يصوّر السنوار هذه المرحلة أنّها انفجارٌ في وجه المُحتلّ، وخلالها يبرز «إبراهيم»، بطل الرواية، قائداً عسكرياً يبتكر أساليبَ قتال جديدةٍ وتصنيع عسكري. مرحلةٌ طويلةٌ تولّى فيها جهاز «مجد» لملاحقة العملاء وتصفيتهم (تفصيل معروف في سيرة السنوار الحقيقية)، قبل تكلّل مسيرته بالاستشهاد في نهايةٍ مفتوحةٍ بين خيالٍ روائيٍّ وحقيقةٍ تنطبق على شهداءَ من مقاومي الحركة الإسلامية وقادتها... مروراً بمحطّاتٍ مفصليةٍ مثل اجتياح بيروت عام 1982، ومجزرة صبرا وشاتيلا، إلى ما هنالك من محطّات تملأ حقبةً تاريخيّةً كاملةً.

ليس «طوفانُ الأقصى» إذاً وليدَ ساعته، بل حصيلةُ تاريخٍ مديدٍ ومتمادٍ من القهر والحصار والموت وبؤس العيش، سواء تحت السلطة المباشرة للاحتلال داخل القطاع، أو لاحقاً عبر تحويله أكبرَ سجنٍ في الهواء الطلق في العالم، بحسب تعبير كلٍّ من نورمان فنكلستين وإيلان بابيه وجوديث باتلر وآخرين كُثر من اليهود، وغير اليهود، من نُخَب الفكر المُتنوّر والعادل. السابع من أكتوبر (2023) ليس التاريخ المفصليّ، بل له ما قبله بعقود طويلة، وسيكون له ما بعده فعلاً تحرُّرياً بطوليّاً دمَّر جدران السجن، وهاجم سجّانيه القتلة الظالمين، ومن العار أن يفصل أيُّ امرئ، أو أيُّ دولة، أو أيّ نظام في العالم، بين «الحدث» وما قبله. أوّل «الطوفان» كان لحظةَ تدفّق المطر من سقف الغرفة الصغيرة في مخيَّم الشاطئ حيث كان يحيى السنوار، كجميع أخوته وأترابه من أطفال فلسطين، يختبرون أمرَّ العيش، وأشدّه بُؤساً.

> لوثة الأدب أدركت السنوار مذ درَسه في الجامعة الإسلامية في غزّة، ثمّ درَّسه قبل تفرُّغه للعمل المُقاوم وللمسؤوليات التنظيمية

يحيى السنوار في غزة، 2023 (Getty)

(كاتب وأكاديمي لبناني)

أمين معلوف إذ يتذكّر غزّة

زياد بركات

لا نطالب الكتّاب الفرنسيين، كلّهم أو بعضهم، بمتابعة حرب الإبادة التي تشنّها إسرائيل على قطاع غزّة، فلديهم مشاغلهم التي قد لا تكون غزّة، بل الشرق الأوسط كلّه، من ضمنها، وإذا فعلها أحدُهم وكتب مُندّداً بإسرائيل والدعم الأميركي غير المحدود لها، فذلك استجابة لما يراه دوراً للمثقّف يتجاوز محيطه المحلّي، وربّما انشغالاته المتخصّصة. ينطبق الأمر على أمين معلوف، وهو كاتب فرنسي يُخطئ كثيرون عندما يُعرِّفونه بالفرنسي - اللبناني. صحيح أنّه من مواليد بيروت، لكنّ نظرةً إلى سيرته التعليمية في لبنان توضّح ما نشير إليه، فقد التحق في طفولته بمدرسةٍ كاثوليكيةٍ فرنسيةٍ (سيّدة الجمهور)، وبجامعة القدّيس يوسف (الفرانكوفونية)، عندما كبر، ما يعني انتماءَه للثقافة الفرنسية بشكل تأسيسي. لذلك، من الطبيعي أن يقارب القضايا التي ينشغل فيها من موقعه هذا، فحتّى عندما كان يعيش في المنطقة كان جزءاً من سواها، ثقافةً وتكويناً وزوايا نظر، ولا يُلام في هذا، بل يُلام من يُحمّله ما لا طاقة له به، وما لا يتّسق ويتساوق مع تكوينه. بعد أكثر من ثلاثمائة يوم من حرب الإبادة على قطاع غزّة، كتب معلوف للمرّة الأولى رأياً له في المذبحة المفتوحة، التي لو كانت في حقّ بوذيّي التبت لكُتبت عنها الكتب، وأُنتجت لها الوثائقيات والوقفات في العواصم الغربية، والمناحات أمام المؤسسات الدولية، لكنّ نصيبها كان سطراً واحداً تقريباً لدى معلوف. كتبه في حسابه في موقع التواصل الاجتماعي إكس، ورأى فيه أنّ الإبادةَ الجماعيةَ بحقّ الشعب الفلسطيني في غزّة (ونحمد الله أنّه اعترف بها) تُضعِف السلطة الأخلاقية للولايات المتّحدة، وتُشوّه صورةَ الدول الغربية. ... سطر واحد لم تُذكر فيه إسرائيل على الإطلاق. لم تُذكر مذابحها ولم تُنسَب لها لتتحمّل مسؤولياتها، كأنّ القاتل مُجرَّد فكرةٍ، شبح، لا جدوى من ذكره أو الدعوة لملاحقته.

قد يقول قائل إنّ المنبر الذي كتب فيه معلوف (إكس) لا يتيح إسهاباً بل إيجازاً في القول، ما جعله يَقْصر تنديدَه الخجولَ على واشنطن والدول الغربية، لكنّ فرصةً أخرى أتيحت له ليقول، لا ليكتب، في نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي، عندما استضافته «فرانس 24» في مقابلة نحو 20 دقيقة، وسُئِل فيها عن غزّة أو عن حرب الإبادة فيها وعليها، فلم يُسهب ولم يتألّم لهذه الضحية أو تلك، بل قفز إلى فضاء التحليل الاستراتيجي الذي يُدرج الحرب في سياق الصراع بين الغرب من جهة، وروسيا وإيران من جهة أخرى. الكتابة غير القول، وهي مُتبصّرة، تعرف رسالتها وجمهورها المُستهدَف، وتعكس مشاغل كاتبها، ويبدو أنّ الكاتب الفرنسي الكبير غير معنيٍّ، لا كتابةً ولا قولاً، أو أنّه لا يرغب في التورّط بمقاربة وقائعَ نعيشها اليوم لا في القرون الوسطى، فيُحسَب عليه موقفٌ يَحرِص على عدم الجهر به، سواء كان هذا الموقفُ ضدّ المجزرة ومع ضحاياها أو تحميلاً المسؤوليةَ للفلسطينيين، فهل سبب ذلك رغبةٌ لا واعيةٌ بترك تلك المنطقة (الشرق الأوسط) وراء ظهره تماماً، بعدما تركها وصنع مجدَه في بلاده فرنسا، كاتباً كبيراً وأميناً عامّاً للأكاديمية الفرنسية؟... ربّما، لكنّ تفسيراً كهذا عليه ألّا يُغفل انحيازات معلوف السياسية، وهي تقوم على التعالي فوق الصراعات لا الانخراط فيها، والتعالي انحيازٌ بالمناسبة، فالصراع «هناك»، وليس «هنا»، وهو (الصراع) ينتمي إلى القرون الوسطى والديانات والغرائز وتكوينات ما قبل الدول. إنّه في الماضي وإن كانت وقائعه تجري أمام أعيننا، وينتمي إلى حقبةٍ تجاوزها العالم تماماً بعد الحرب العالمية الثانية، إذ تسعى الدولُ المُتحضّرة إلى التسويات، إلى حلّ الصراعات، وهو ما لا يحدث في الشرق الأوسط.

حسناً، حتّى لو صحّ هذا، ألا يقتضي شرحاً أو إسهاباً في التحليل قد يخرج منه المُتلقّي بموقف واضح لمعلوف؟ ولماذا لم يقله عندما استضافته قناة آي 24 الإسرائيلية في يونيو/ حزيران عام 2016 ليتحدّث عن كتابه «كرسيٌّ على السين»، على الأقلّ ليظهر في مظهر من يُساوي بين إسرائيل والفلسطينيين؟... أسئلة وسواها تُؤكّد ربّما أو تقود إلى استنتاج أنّ الرجلَ في ما يبدو لا يرى إسرائيلَ جزءاً من كيانات القرون الوسطى المتصارعة في العصور الحديثة، بل جزءاً من العالم المعاصر، الذي يُحارِب العوالم القديمة والمظلمة؛ إنّه مُجرَّد فرنسي لا يريد حتّى أن يرى عندما يتعلّق الأمر بإسرائيل.

النظام العالمي الجديد يلفظ أنفاسه في غزّة

محمد أحمد بنّيس

على الرغم من أنّ شيوع توظيف مفهوم النظام العالمي الجديد في أدبيات العلاقات الدولية يعود إلى حقبة ما بعد نهاية الحرب الباردة، إلّا أنّ المفهومَ يُشير إلى اللحظات التاريخية المفصلية التي اتّسمت بتحوّلٍ عميقٍ في علاقات القوّة على الصعيد الدولي، على الأقلّ منذ مطلع القرن العشرين، فقد أذنت نهاية الحرب العالمية الأولى بإقامة نظامٍ عالميٍّ جديدٍ، سرعان ما تداعت ركائزُه الهشّةُ بعد نشوب الحرب العالمية الثانية. وبنهايتها، وبهزيمةِ النازيّةِ، تأسّس نظام الثنائية القطبية، الذي دام أكثرَ من أربعة عقود. وهو النظام الذي سيُعجّل بنهايته انهيار المعسكر الشرقي وتفكّك الاتحاد السوفييتي، ليحلّ محلّه نظامٌ عالميٌّ آخر بقيادة الولايات المتّحدة؛ هذا النظام يبدو في طريقه إلى التفكّك، بعدما خرج الوحش الإسرائيلي عن السيطرة، وتخطّت حرب الإبادة التي يشنُّها ضدَّ الشعب الفلسطيني المظلوم في قطاع غزّة الحدود كلّها، من دون أدنى اعتبارٍ للقانون الدولي، ولا حتّى لحلفائه في الغرب الذي من المُؤكّد أنّه سيدفع، آجلاً أم عاجلاً، قسطاً غيرَ يسير من هذه الإبادة من أرصدته الحضارية والقيمية والثقافية المعلومة. وللإشارة، كانت قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان اليافطةَ العريضةَ التي حملها هذا الغرب وهو يخرج مُظفَّراً من حربه الأيديولوجية ضدَّ المعسكر الشرقي.

أسقطت حرب غزّة آخرَ أوراق التوت عن الغرب، وكشفت نِفاقَه ومعاييرَه المزدوجةَ في تعاطيه مع النزاعات وبُؤَر التوتّر في العالم؛ فبعد انصرام أكثر من عشرة أشهر على بداية العدوان، يقف عاجزاً أمام آلة القتل الإسرائيلية. حتّى منظومة العدالةِ الدولية، التي يُفترَض أنّها تحوز الحدَّ الأدنى من الامتثال لأحكامها وقراراتها، لا يبدو أنّ دولة الاحتلال تُعيرها أيَّ اهتمام، بعدما وصلت لنقطة اللاعودةِ في ما ترتكبه من مجازرَ مُروّعةٍ بشكل يكاد يكون يومياً. إنّ ضربها عُرْضَ الحائط بما صدر عن محكمة العدل الدولية مُؤشّرٌ دالٌّ إلى أنّ النظام العالمي، القائم حالياً، فقد شرعيته الأخلاقية والقانونية والسياسية. فأيُّ معنى سيكتسيه، بعد الآن، ترافعُ مؤسّساتِ الغرب ومنتدياته ونُخَبه عن الديمقراطية ونزاهة الانتخابات واحترام الحقوق والحرّيات العامَّة ومناهضة التعذيب والقضاء على أشكال التمييز كلّها ضدَّ المرأة وحماية حقوق الطفل، في وقت يتعرَّض فيه الفلسطينيون في غزّة لمحرقةٍ مفتوحةٍ بتواطؤٍ من الدول الغربية الكبرى وحلفائها في الإقليمِ؟

في السياق ذاته، يواجه الغربُ، وبالأخص الولايات المتّحدة، معضلة إعادةِ النظرِ في المسألة اليهودية، بعدما وصلت الصهيونيةُ لسقف غير مسبوقٍ من التوحُّش. صحيحٌ أنّ ذلك لا يزال غيرَ معلنٍ في دوائر السياسة والإعلام، لكنّ نجاح المقاومة في إعادة القضية الفلسطينية إلى صدارة الأحداث، ووقوفِ المجتمعات الغربية على الحقائق التاريخية للصراع، والتصدُّعات التي يعيشها المجتمع الإسرائيلي في أكثر من واجهة، ذلك كلّه جعل طيفاً عريضاً من الرأي العام الغربي قادراً على التمييز بين معاداة الساميّة، التي وظّفتها إسرائيل للتملّص من المساءلةِ وإنكارِ الحقوق الفلسطينية المسلوبة وإخفاء حقيقتها التوسّعية والاستعمارية بغطاءٍ دولي وأممي، ومعاداة الصهيونية، باعتبارها حركةً استعماريةً واستيطانيةً، وابنةً شرعيةً للإمبريالية الغربية بمختلف تبدّياتها الاقتصادية والسياسية والثقافية. قد لا يكون من التزيّد القولُ إنّ النظام العالمي الجديد يلفظ أنفاسه في غزّة، ما يُشكّل ضربةً للأمم المتّحدة بمؤسّساتها وأجهزتها كلّها، ويُسائِل شرعيتها، إذ لم تكتفِ بأن تكون غطاءً لتقسيم فلسطين واغتصابها بإصدار قرار التقسيم الجائر، بل تقف، اليوم، عاجزةً عن إيقاف حرب الإبادة في غزّة، لارتهان إرادتها للدول الغربية الكبرى، وفي ذلك ما يجعل الحاجةَ إلى قيام نظامٍ دوليٍّ جديدٍ أكثرَ من مُلحَّة.

بلال الحسن وداعاً

كمال عبد اللطيف

افتقدنا منذ سنوات نوعيّة الحضور الذي كان للفلسطيني المرحوم بلال الحسن (1939 - 2024)، فقد توقّف عن زيارة الرباط وقضاء جزءٍ من عطلة الصيف فيها منذ سنوات، بعد أن استأنسنا بحضوره وابتسامته وصمته وكلامه بيننا كلّ مساء، في تسعينيّات القرن الماضي وبدايات الألفية الثالثة. كنّا مجموعةً قليلةً من الأصدقاء، نسعدُ يومياً بمجالسته وحواره، مُتحدّثاً مبتسماً وصامتاً... مجموعة ذات هواجسَ وهموم وأسئلةٍ مشتركةٍ، والجامعُ الأكبرُ في كلّ ما ذكرتُ يتعلّق بالأوضاع العربية وتحوّلاتها، ويتعلّق بمسارات القضية الفلسطينية، والمشروع الوطني الفلسطيني، إضافةً إلى العديد من الأسئلة المُرتبطة بالثقافة والتاريخ والتغيير والإصلاح. أمّا الصورة التي ترسّخت في ذهني عن نمط حضوره معنا، فتتمثّل في صمته وابتسامته، وكذا جُمله القليلة عندما يتحدّث. كان أغلب المشاركين في جلساتنا المسائية الحرّة يعرفونه، ويعرفون الأدوار التي لعبتها أسرتُه في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، داخل منظّمة التحرير الفلسطينية، وفي أجهزتها، كما كانوا يعرفون أدوار خالد الحسن، وهاني الحسن، وعلي الحسن، وانخراطهم جميعاً منذ بداية العمل الوطني من أجل التحرير، في الصورة التي تبلوَر وتطوَّر بها في ستينيّات القرن الماضي وسبعينياته، وكثيرٌ منهم يعرف الأدوار التي قام بها المرحوم وهو ينخرط في كثير من الجهد في تطوير وتأسيس منابرِ إعلامية كثيرة. يعرفون بداياته في «المُحرِّر» مع غسّان كنفاني، ثمّ في «الحرّية» مع القوميين العرب، كما يعرفون الدور الذي لعبه مع المرحوم طلال سلمان (1938 - 2023)، وهما يُؤسّسان صحيفة السفير سنة 1974. يعرفون أيضاً، مجلة اليوم السابع التي كانت تصدر من باريس، وكان مُديراً لها. يجلس بلال الحسن بيننا مبتسماً أو حزيناً، صامتاً أو متكلّماً، ينتقد ثقافة الاستسلام، يدعو بجرأةٍ وقوّةٍ إلى عدم التفريط في الحقوق الفلسطينية كاملةً. سَليلُ الحركة الوطنية يخاف من ثقافة الاستسلام، ولهذا كنّا نحدّثه عن مخاوفنا الجديدة، وعندما غاب عن مجلسنا منذ سنوات، كنّا نَحِنُّ إلى صمته، ونتطلّع إلى إمكانية لقائه، خاصّة عند عودة المقاومة الفلسطينية، وعودة شعار التحرير، شعار المشروع الوطني الفلسطيني. غيَّبه المرضُ ومنعه من زيارتنا ومُجالستنا، ومنعنا من الاستماع إليه صامتاً ومبتسماً.

> كان بلال الحسن الإعلامي سعيداً بـ«اليوم السابع»، فقد استطاع أن يُحقّق مُنجزاً مُهمّاً في دائرة الإعلام الثقافي العربي

أتصوَّر أنّ بلال الحسن الإعلامي كان سعيداً بـ«اليوم السابع»، فقد استطاع، بحسّه السياسي والثقافي، أن يُحقّق منجزاً مُهمّاً في دائرة الإعلام الثقافي العربي. بدأت المجلة في الصدور سنة 1983 وتوقّفت سنة 1991، وفي رحلتها القصيرة، بلورت خياراتٍ ومواقف، وانخرط في تحرير أبوابها ومقالاتها طلائع المُثقّفين العرب. وقد راهنت على إيجاد صلاتٍ من الوصل داخل دائرة المحيط العربي، صلات من الوصل بين المشرق والمغرب العربيَين، كما تميَّزت بشكلها وإخراجها، والنوافذ التي كانت توفّرها صفحاتُها للمساهمة في بناء ثقافةٍ عربيةٍ جديدةٍ. أذكر أنّه عندما كان بعضنا يُحدّثه عن بعض مزايا «اليوم السابع» وأدوارها في حقل الإعلام الثقافي، وفي الثقافة العربية المعاصرة، يشعر بقليل من الراحة، تعكسه تعبيرات وجهه بكثير من الخجل، خجل الكبار عندما يعملون، مواقف الإعلامي الذي لا يميّز، بطريقة سطحية، بين الثقافي والإعلامي وأسئلة التاريخ في مجتمعات مهزومة لم تستكمل تحرّرها وتحريرها بعد.

تمنّيتُ، منذ توقّفه عن زيارة الرباط، أن أراه وأجالسه، كم تمنّيتُ أن يكون حاضراً ومُتحدّثاً طوال أشهر العدوان الصهيوني المتواصل على فلسطين! كنّا نريد صوتَه، وأن يواصل نقدَه ثقافة الاستسلام. وإذا كان قد شخّص في كتابه «ثقافة الاستسلام»(دار رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، 2005) مجمل مواقفه من خيارات السلام، ومن الخداع الإسرائيلي، موضّحاً خطورتهما على مشروع التحرير وعودة اللاجئين، وكذا مشروع الإبادة المتواصلة اليوم، والمُعلَنة من الكيان الصهيوني، وبدعم مكشوفٍ من الغرب الإمبريالي، والتابعين له في المحيط العربي، في زمن لم تعد فيه القضية الفلسطينية قضيةً عربيةً. توقّف عن الكتابة، ودفعه المرضُ إلى العزلة القهرية، لكنّه ظلّ بيننا مبتسماً ومتفائلاً تفاؤل الوطنيين وقت الشدّة، وقت ترقُّب عودة المقاومة. عندما نتأمّل المسارَ الحافلَ والصانعَ لبعض المهام والأدوار التي أنجزَ في مجال الإعلام العربي الملتزم والمسؤول، ونتأمّل مواقفَه السياسية، ندرك أنّه كان مُنخرطاً في السياقات التاريخية المؤطِّرة لحياته، فقد نشأ في قلب أسئلة المشروع الوطني الفلسطيني، في منظّمة التحرير أولاً، ثمّ في حركة القوميين العرب والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. ووسط هذه المؤسّسات، بما كانت تعبّر عنه كلّه من طموحاتٍ، وما تحمله من شعاراتٍ، نجد أنّه انخرط في العمل الصحافي، وركّب المواقفَ المرتبطةَ بخياراته السياسية بكثير من الاعتدال، الذي لا يقبل أبداً التفريط في المبادئ الكُبرى للحقّ التاريخي الفلسطيني في الأرض وفي التحرير. تعلّم هذا واستوعبَ أخلاقه السياسية مُبكّراً، ويعرفه الذين تابعوا مساراته الصحافية والسياسية. وعندما كانت تواجهه مُتغيّرات الوضعَين الفلسطيني والعربي، كان يتوقّف عن الكتابة والكلام، لأنّه كان يؤمن أنّ ثقافة الاستسلام لن يكون بإمكانها أنّ تُعطّل إرادةَ المقاومة، إرادة استعادة الحقّ الفلسطيني اليوم أو غداً. ويجب ألا نُغفل الإشارة هنا، ونحن نتحدث عن السياقات المواكبة لمساره، أنّ الرجل ظلّ طيلة عمره متنقّلاً بين دمشق وبيروت وعمّان، ثمّ تونس وباريس، ثمّ الرباط، ولم يكن انتقاله بين الحواضر التي ذكرنا مقروناً باختياره، بل كان نتيجةً للتحوّلات التي يعرفها المسار العام للقضية الفلسطينية. نتذكر اليوم، ونحن نسمع خبر رحيل بلال الحسن، مقالاته في مجلّة الحرّية، كما نتذكّر نوعيةَ الحضور الإعلامي الذي رسمته «السفير» في تاريخ الإعلامَين اللبناني والعربي، كما نتذكّر مقالاته في صحيفتَي الحياة والشرق الأوسط، إلّا أنّ إشعاعه الأكبر رسمت ملامحَه الكُبرى جهودُه وجهودُ جوزيف سماحة، مع فريق العمل في أسبوعية اليوم السابع، بكلّ ما كانت تُقدّمه من موادَّ متنوعةٍ، وبمختلف الأسئلة والقضايا التي كانت تتناولها أقلام مجموعة من الباحثين والإعلاميين من مختلف البلدان العربية. وهنا، لا بدّ من تذكّر مقالات هشام جعيط وأنور عبد المالك وطارق البشري وغيرهم، وتذكّر حوار «مشرق/ مغرب» الذي رتّب أعماله فيصل جلّول، وأنتج الحوار الشهير بين محمّد عابد الجابري وحسن حنفي، إذ أثمر هذا الحوار مُصنّفاً مُهمّاً بأسئلته وخلاصاته، وبمختلف الأسئلة التي ما زال يثيرها في الثقافة العربية.

(أكاديمي مغربي)

حراك السويداء والشمال السوري هل يُغيّران حالة الاستنقاع؟

أحمد مظهر سعدو

بدأ الحَراك الشعبي الوطني السلمي في السويداء وجبل العرب جنوب سورية انتفاضتَه منذ بدايات أغسطس/ آب 2023، ثمّ تبعه حَراك «اعتصام الكرامة» في الشمال السوري، الذي انطلق مطلع يوليو/ تمّوز 2024. وإذا كانت الصرخةُ الكُبرى في محافظة السويداء وجبل العرب لم تعد تكفي وحدها، وكان المأمولُ أن تواكبها حَراكاتٌ أُخرى تُشكّل موجةً أخرى وجديدةً من ثورة السوريين، التي بدأوها أواسط شهر مارس/ آذار 2011، والتي كادت تُؤدّي إلى كنس نظام الاستبداد المشرقي الطغياني أواسط عام 2013 لولا التدخّل الاحتلالي الإيراني عبر الميليشيات التابعة لنظام الملالي في إيران، وتوابعه من مليشيا الحشد الشعبي في العراق؛ «النجباء والفاطميون» وسواهم، ومنتجات حزب الله كلّها. ثمّ تدخّلت روسيا باستنجادٍ من بشّار الأسد (ثم قاسم سليماني)، أواخر شهر سبتمبر/ أيلول 2015، ما أسهم أيضاً في إخماد الثورة السورية، ومَنَعها من تحقيق الانتصار، ومن ثمّ أعاد قيامة نظام بشّار الأسد، وصولاً إلى استمرار العمليات العسكرية، التي قضمت الأراضي، التي سبق وسيطرت عليها المُعارضةُ السوريةُ المسلّحةُ، رويداً رويداً انتهاءً باتفاق الخامس من مارس 2020 بين روسيا وتركيا بخصوص محافظة إدلب، الذي ساهم في كبح جماح مليشيات النظام السوري، وأنجز الاتفاق البروتوكولي الذي ثبّت هيمنة النظام السوري على أجزاءٍ كبيرةٍ من محافظة إدلب، وبعض ريف محافظة حماة، فقام النظام السوري وقواته بقضم كلٍّ من خان شيخون ومعرّة النعمان ومدينة سراقب الاستراتيجية أيضاً. ثم راح النظام السوري بعدها ينفّذ خروقاتٍ أمنيةً وعسكريةً يوميةً للاتفاق/ الهدنة، من دون أن يُنفّذ بنودَ الاتّفاق المُتعلّقةِ بتسيير دوريات روسية تركية مشتركة، أو إعادة فتح طريق «إم فور»، ومن دون توفير أيّ حالة استقرار طويلة الأمد لواقع السوريين جنوب الخطّ الحيوي المشار إليه. ذلك كلّه، ونتيجةً طول مدّة حالة الاستنقاع التي تعيشها المسألة السورية، حال دون اجتراح الحلول المواتية والمُهمّة، والبحث عن مخرج يساهم في تحريك حالة الاستنقاع تلك، التي جعلت الواقع السوري ضبابياً، لا آفاقَ مستقبليةً منظورةً له، كما أعاد تكوين المشهد السوري، وفق الرؤيتَين المصلحيتَين الروسية والإيرانية، اللتين تخدمان استمرار بقاء الأسد في السلطة والحكم، بعد جملة المُتغيّرات الجارية اليوم في الإقليم، منذ ما يزيد عن عشرة أشهر خلت. ويبدو أنّ انتفاضة محافظة السويداء السورية السلمية المدنية، وضمن التصوّرات الواعية لما تريده، قد فعلت فعلها جدّياً في إعادة تحريك الواقع السوري من جديد، وإعادة إنتاجه وفق آفاق جديدة، من الممكن أن تساهم في تمظهر المسألة السورية بشكل مختلف، فارضةً بذلك على اللاعبين الإقليميين والكبار ضروراتٍ مُهمّةً لإنتاج واقعٍ ومستقبلٍ جديدٍ للسوريين طالما حُرِمُوا منه، وحَلمُوا فيه، وغابت عنه انبثاقاتٌ أرحبُ لمستقبل السوريين. ولعلّ ما تبع ذلك من مظاهرات في محافظة إدلب، ثمّ اعتصام الكرامة الكبير في الشمال السوري، قد جاءت متساوقةً مع ما آلت إليه أوضاع الانتفاضة في السويداء، تهيئة وأملاً في الاشتغال جدّياً في رسم ملامحِ واقعٍ ومستقبلٍ سوري أكثر قدرةً على الخروج من عنق الزجاجة، وبثّ الحياة مرّةً أخرى في أتون مُتغيّرات يفترض أن تساهم فعلياً في الانتقال نحو مسارات سورية لا تعيقها أبداً، ولا تسمح بأن تأخذ منها عَبَقها، ولا هِمَمَ السوريين، عمليات التطبيع الجارية كلّها على عجل في الإقليم والمحيط حول سورية، سواء التطبيع الجاري على قدم وساق بين تركيا ونظام بشّار الأسد، أو ذاك المُتحرّك بين هذا نظام وعدة دول النظام العربي الرسمي المهرولة نحو التطبيع معه، استغلالاً للرضى الأميركي عليه، بعد موقف واشنطن المُنطلِق من أتون حيثيات ما يُسمَّى «الصبر الاستراتيجي»، وإحجام الأسد عن أيّ مشاركة حقيقية في دعم صمود شعب قطاع غزّة، والشعب الفلسطيني المكلوم.

> ما يفعله المعتصمون في الشمال السوري يشير إلى امتلاك فكر حداثي تخطيطيّ بعيد المدى

التحرّك السلمي المدني في محافظة السويداء، بقضم كلٍّ من خان شيخون ومعرّة النعمان ومدينة سراقب الاستراتيجية أيضاً. ثم راح النظام السوري بعدها ينفّذ خروقاتٍ أمنيةً وعسكريةً يوميةً للاتفاق/ الهدنة، من دون أن يُنفّذ بنودَ الاتّفاق المُتعلّقةِ بتسيير دوريات روسية تركية مشتركة، أو إعادة فتح طريق «إم فور»، ومن دون توفير أيّ حالة استقرار طويلة الأمد لواقع السوريين جنوب الخطّ الحيوي المشار إليه. ذلك كلّه، ونتيجةً طول مدّة حالة الاستنقاع التي تعيشها المسألة السورية، حال دون اجتراح الحلول المواتية والمُهمّة، والبحث عن مخرج يساهم في تحريك حالة الاستنقاع تلك، التي جعلت الواقع السوري ضبابياً، لا آفاقَ مستقبليةً منظورةً له، كما أعاد تكوين المشهد السوري، وفق الرؤيتَين المصلحيتَين الروسية والإيرانية، اللتين تخدمان استمرار بقاء الأسد في السلطة والحكم، بعد جملة المُتغيّرات الجارية اليوم في الإقليم، منذ ما يزيد عن عشرة أشهر خلت. ويبدو أنّ انتفاضة محافظة السويداء السورية السلمية المدنية، وضمن التصوّرات الواعية لما تريده، قد فعلت فعلها جدّياً في إعادة تحريك الواقع السوري من جديد، وإعادة إنتاجه وفق آفاق جديدة، من الممكن أن تساهم في تمظهر المسألة السورية بشكل مختلف، فارضةً بذلك على اللاعبين الإقليميين والكبار ضروراتٍ مُهمّةً لإنتاج واقعٍ ومستقبلٍ جديدٍ للسوريين طالما حُرِمُوا منه، وحَلمُوا فيه، وغابت عنه انبثاقاتٌ أرحبُ لمستقبل السوريين. ولعلّ ما تبع ذلك من مظاهرات في محافظة إدلب، ثمّ اعتصام الكرامة الكبير في الشمال السوري، قد جاءت متساوقةً مع ما آلت إليه أوضاع الانتفاضة في السويداء، تهيئة وأملاً في الاشتغال جدّياً في رسم ملامحِ واقعٍ ومستقبلٍ سوري أكثر قدرةً على الخروج من عنق الزجاجة، وبثّ الحياة مرّةً أخرى في أتون مُتغيّرات يفترض أن تساهم فعلياً في الانتقال نحو مسارات سورية لا تعيقها أبداً، ولا تسمح بأن تأخذ منها عَبَقها، ولا هِمَمَ السوريين، عمليات التطبيع الجارية كلّها على عجل في الإقليم والمحيط حول سورية، سواء التطبيع الجاري على قدم وساق بين تركيا ونظام بشّار الأسد، أو ذاك المُتحرّك بين هذا نظام وعدة دول النظام العربي الرسمي المهرولة نحو التطبيع معه، استغلالاً للرضى الأميركي عليه، بعد موقف واشنطن المُنطلِق من أتون حيثيات ما يُسمَّى «الصبر الاستراتيجي»، وإحجام الأسد عن أيّ مشاركة حقيقية في دعم صمود شعب قطاع غزّة، والشعب الفلسطيني المكلوم.

التحرّك السلمي المدني في محافظة السويداء، الواعي لما يفعل، والمُتّكئ على انتخابات شعبية حقيقية، وتجربة ديمقراطية متميزة، أصبح متيناً ومتماسكاً بحقّ، ويصعب بالتالي إيقافه أو اقتلاعه، كما أنّ ما يفعله المعتصمون في الشمال السوري يشير إلى امتلاك فكرٍ حداثيٍّ تخطيطيٍّ بعيد المدى، يأبى الانكسار أو التراجع، وهو ما يُعطي الأملَ في امتداده إلى محافظات أخرى، ومن ثمّ إعادة إنتاج ديناميات سورية تغييرية في الحراك الوطني، والذي يعرف جيداً ماذا يريد، وبالتالي، وفيما لو استمر ذلك وفق المنوال نفسه، من الممكن أن يدفع بالقضية السورية قُدماً، وأن يُحرجَ اللاعبين كلّهم، ويعيد بالضرورة ترتيب الأوراق، كما يُحرجُ المعارضات السورية الرسمية، التي باءت خطواتها بالفشل، وما برحت عاجزةً عن إنتاج أيّ ديناميات جديدة، تتوافق وتتساوق مع ما يريده الناس في محافظة السويداء، وأيضاً في الشمال السوري، وهذا يُؤكّد أنّ ما أرادته ديناميات الحَراكَين، ليس الانتفاض ضدّ النظام المُستبِدّ الأسدي فقط، بل هي كذلك محاولةٌ لخلق البدائل الموضوعية، وملء الفراغ، وتحريك الستاتيك، الذي تعتمده بعض أدوات المُعارَضة الرسمية السورية ومنتجيها خطوةً إثر خطوةٍ.

(كاتب سوري في غازي عنتاب)

يحيى السنوار زعيماً

دلال البزري

ابتهجت إيران، ومعها وكلاؤها، بانتخاب يحيى السنوار زعيماً لحركة حماس، وبالتالي لغزّة. ... لماذا؟ لأن ذلك هو «الردّ الصحيح على اغتيال إسماعيل هنيّة»، ولأنه يعني أن «حماس رفعت مستوى التحدّي» (منبر ممانع). ولأنه يعني أن «الاحتلال فقد الأمل بمستقبله» (رئيس أركان الجيش الإيراني). ولأنه مؤشّر أيضاً إلى الأمل والانسجام والقوة والنصر في حركة حماس والشعب الفلسطيني ومحور المقاومة» (وزير الخارجية الإيراني). وهو يعني أن «مسيرته ستبقى مستمرّة حتى تحرير أرض فلسطين كلها حول محور القدس» (القائد العام للحرس الثوري اللواء حسين سلامي). فيما إسرائيل، وبلسان مسؤولين مختلفين، أجمعوا على قولةٍ واحدة بوجه هذا الانتخاب: يجيئ قتل السنوار كما قتل هنيّة. وتتلخص بكلمة وزير الخارجية الإسرائيلي يسرائيل كاتس: «تعيين الإرهابي يحيى السنوار زعيماً جديداً لحماس ليحل محل إسماعيل هنيّة، هو سبب مقنع آخر للقضاء عليه بسرعة ومحو هذه المنظمّة الشريرة عن وجه الأرض». ما يعطي القوة لهذين الموقفين المتناقضين ما يحصل على أرض غزّة. المجزرة فيها مستمرّة، يومية، ولكن «حماس» استعادت بعضا من قدراتها. في شمال غزّة ووسطها، التي يقول الجيش الإسرائيلي إنه «نظفها» (مسحها)، أعادت نصف الكتائب بناء قدراتها التسلحية. من بين 24 كتيبة في «القسّام» ثلاث فقط دمّرت تماما. ثمان منها «ذات فعالية في القتال»، و13 تعتبر «متضرّرة» ولكنها قادرة على شنّ هجمات غير صائبة متفرّقة شبيهة بحرب العصابات. أعادت بعض الكتائب الاندماج بأخرى. انتسب إلى بعض الكتائب مقاتلون جدد، ينصبون الفخاخ والكمائن ... إلخ.

> الرغبة بمواصلة القتال على أنقاض غزة وأهلها موزعة بين إرادتين عدوتين. واحدة بغرض إبادتهم وطردهم والثانية بإيمان مسياني عن الشهادة والاستشهاد

وسيطرت عليها المُعارضةُ السوريةُ المسلّحةُ، رويداً رويداً انتهاءً باتفاق الخامس من مارس 2020 بين روسيا وتركيا بخصوص محافظة إدلب، الذي ساهم في كبح جماح مليشيات النظام السوري، وأنجز الاتفاق البروتوكولي الذي ثبّت هيمنة النظام السوري على أجزاءٍ كبيرةٍ من محافظة إدلب، وبعض ريف محافظة حماة، فقام النظام السوري وقواته بقضم كلٍّ من خان شيخون ومعرّة النعمان ومدينة سراقب الاستراتيجية أيضاً. ثم راح النظام السوري بعدها ينفّذ خروقاتٍ أمنيةً وعسكريةً يوميةً للاتفاق/ الهدنة، من دون أن يُنفّذ بنودَ الاتّفاق المُتعلّقةِ بتسيير دوريات روسية تركية مشتركة، أو إعادة فتح طريق «إم فور»، ومن دون توفير أيّ حالة استقرار طويلة الأمد لواقع السوريين جنوب الخطّ الحيوي المشار إليه. ذلك كلّه، ونتيجةً طول مدّة حالة الاستنقاع التي تعيشها المسألة السورية، حال دون اجتراح الحلول المواتية والمُهمّة، والبحث عن مخرج يساهم في تحريك حالة الاستنقاع تلك، التي جعلت الواقع السوري ضبابياً، لا آفاقَ مستقبليةً منظورةً له، كما أعاد تكوين المشهد السوري، وفق الرؤيتَين المصلحيتَين الروسية والإيرانية، اللتين تخدمان استمرار بقاء الأسد في السلطة والحكم، بعد جملة المُتغيّرات الجارية اليوم في الإقليم، منذ ما يزيد عن عشرة أشهر خلت. ويبدو أنّ انتفاضة محافظة السويداء السورية السلمية المدنية، وضمن التصوّرات الواعية لما تريده، قد فعلت فعلها جدّياً في إعادة تحريك الواقع السوري من جديد، وإعادة إنتاجه وفق آفاق جديدة، من الممكن أن تساهم في تمظهر المسألة السورية بشكل مختلف، فارضةً بذلك على اللاعبين الإقليميين والكبار ضروراتٍ مُهمّةً لإنتاج واقعٍ ومستقبلٍ جديدٍ للسوريين طالما حُرِمُوا منه، وحَلمُوا فيه، وغابت عنه انبثاقاتٌ أرحبُ لمستقبل السوريين. ولعلّ ما تبع ذلك من مظاهرات في محافظة إدلب، ثمّ اعتصام الكرامة الكبير في الشمال السوري، قد جاءت متساوقةً مع ما آلت إليه أوضاع الانتفاضة في السويداء، تهيئة وأملاً في الاشتغال جدّياً في رسم ملامحِ واقعٍ ومستقبلٍ سوري أكثر قدرةً على الخروج من عنق الزجاجة، وبثّ الحياة مرّةً أخرى في أتون مُتغيّرات يفترض أن تساهم فعلياً في الانتقال نحو مسارات سورية لا تعيقها أبداً، ولا تسمح بأن تأخذ منها عَبَقها، ولا هِمَمَ السوريين، عمليات التطبيع الجارية كلّها على عجل في الإقليم والمحيط حول سورية، سواء التطبيع الجاري على قدم وساق بين تركيا ونظام بشّار الأسد، أو ذاك المُتحرّك بين هذا نظام وعدة دول النظام العربي الرسمي المهرولة نحو التطبيع معه، استغلالاً للرضى الأميركي عليه، بعد موقف واشنطن المُنطلِق من أتون حيثيات ما يُسمَّى «الصبر الاستراتيجي»، وإحجام الأسد عن أيّ مشاركة حقيقية في دعم صمود شعب قطاع غزّة، والشعب الفلسطيني المكلوم.

وربما يشير تزايد شراسة الهجمات الإسرائيلية على مواقع متفرّقة من غزّة إلى هذه الانبعاثة الجديدة لكتائب القسّام، فما يجنّن جيشها أنه يشهد ولاداتٍ جديدة في أحياء أو مواقع اعتقد أنه انتهى من أمرها، وها هي ما زالت تطلق عليه الرصاص. يحيى السنوار مخطّط عملية طوفان الأقصى، وإدانتها تحتمل اللبس. بين المبالغة الإسرائيلية - الأميركية - الغربية التي اعتادت أن تكون هي القاتلة والمهيمنة أمنياً خصوصاً، والمغالاة في الترحيب بها بصفتها «أعظم عملية عسكرية خاضها الفلسطينيون في تاريخهم»، ثمّة نقطة وسط بينهما تراها كسجين ينتفض على سجّانه بإمكانات جديدة ومفاجئة، تتلخّص بالمهارة الأمنية وحسب. ومن نتائج إيجابية للعملية، أولاً، أنها زعزعت ثقة إسرائيل بأمنها، هي القائمة على مجتمع إسبارطي ذي إمكانات نووية عسكرية وتكنولوجيا في خدمة حمايتها من محيطها المعادي، فزادت من التوظيف في المجالات هذه، وشرعت في تجنيد حفظة التلمود الممتنعين عن القتال. وثانياً، أن معركة جناح إسرائيل العلماني ضد مشروع حكومتها بالإمساك بالقضاء، أي معركته من أجل الديمقراطية، بدت بائتة أمام هوْل رد فعلها على الطوفان. انتعشت القراءات اليهودية والإسرائيلية بشأن استحالة الفكرة الصهيونية وهشاشة الكيان الإسرائيلي. ثالثاً، أنها فجّرت القضية الفلسطينية بوجه العالم كله. ارتفع العلم الفلسطيني في عواصم وأزقة الغرب والعالم، فتحت صفحات التاريخ، وعُدنا إلى مناخات النكبة والطرد وحرق القرى. وامتلأت الشبكة بمئات من الأقوال والرسائل والفيديوهات متعاطفة، مؤيدة، متحمسة، متألمة. والسؤال الراهن الموجّه إلى الزعيم المكرس يحيى السنوار، الذي تطرحه الموجة العالمية المتعاطفة مع فلسطين وأهل غزّة: نادينا منذ البداية وما زلنا ننادي بوقف الحرب. ما هو موقفك من وقف الحرب؟ ما هي شروطك لوقف النار؟ هل سيكون مبعوثك إلى المفاوضات محمّلا بتعليمات واقعية لوقف النار؟ السؤال الثاني: الحل الذي أجمع عليه هذا الرأي المتضامن، والرأي العربي بمجمله، إقامة دولة فلسطينية على حدود 1967. فهل يوافق السنوار عليه، أم يعتمد على رفض إسرائيل له رسميا عبر الكنيست ليرفضه؟ علما أن الحل المعروف عن السنوار هو أن لا حل إلا بإزالة إسرائيل. مثل كل عقائدي الإسلام السياسي إن الإيمان يقتضي على المسلمين إقامة فلسطينهم على كامل التراب.

وقبل هذه التساؤلات عملية الطوفان بحد ذاتها: هل فكّر السنوار بعواقبها؟ كلا لم يتوقّع. وفي هذه الحالة، ينضم إلى قافلة «لو كنت أعلم» إذا كتبت له الحياة بعد نهاية حرب غزّة. ... كلما زاد عدد القتلى وأبطال المأساة انهالت على إسرائيل الإدانات العالمية، وصارت هي المنبوذة، وفقد يهود العالم خارج إسرائيل أمانهم واحترامهم. وصدقيّتهم... وعبارته عن «الضحايا المدنيين تضحية ضرورية» (صحيفة وول ستريت جورنال، 2024/6/11)، لا تحتاج إلى تفسير. حسابه مع الموت مفتوح. لا حدود للاستشهاد. يواصل نتنياهو حربه القريبة بموازاة البعيدة. كل يوم يعلن عن وعد بالانتصار الشامل ويقتل بالعشرات ويدمّر المدمر وينقل النازحين من إيواء إلى آخر، يلاحقهم مثل العصافير. لذلك، الرغبة بمواصلة القتال على أنقاض غزة وأهلها موزعة بين إرادتين عدوتين. واحدة بغرض إبادتهم وطردهم والثانية بإيمان مسياني عن الشهادة والاستشهاد تضع الموت في مرتبة الرجاء. وبينهما يحتل الثأر قائمة الخوف. الثأر الإسرائيلي من الطوفان والثأر الحماسي من ضحايا الرد الإسرائيلي على الطوفان. وبينهما أهل غزّة الذين دفعوا من دمهم ثمن هذه الحلقة الجهنمية. في حين أن كل ضجيج «وحدة الساحات»، بقيادة إيران التي يقيم السنوار في أحضانها، لم تؤجل لحظة واحدة ذاك المصاب الذي ألمّ بأهل غزّة، والذي يدرج حالياً تسميته «النكبة الثانية».

ماذا في كل هذا الأفق؟ هل يتخلّى السنوار عن شيء من سلطته، ويلتقي بالأطراف الفلسطينية والشخصيات العاملة على توحيد الموقف الفلسطيني؟ أو هل ينقلب على نفسه ويخوض مفاوضات مسؤولة تفضي لانسحاب إسرائيلي من غزّة وإطلاق سراح السجناء الفلسطينيين مقابل إطلاق سراح الرهائن الإسرائيليين؟

(كاتبة لبنانية)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads